المحور الأول : التاريخ وماهية الإنسان

المحاضرة الأولى : التاريخ الطبيعي والتاريخ الإنساني1

هل هناك تمايز بين التاريخ الطبيعي والتاريخ الإنساني؟

تمهيد :

إن ما يميز الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى هو ذلك الوعي بتاريخه، وقدرته على تسجيله وتدوينه وقراءته، والاستفادة منه والاقتداء به، مما حتّم على كل إنسان التعرف على ما خلفه أسلافه من سلوكات وأمجاد، تعد إرثا حضاريا، وجب على الفرد المحافظة عليه، ونقله إلى الغير، لكن لا يتسنى ذلك إلا إذا تم تدوينه، فما دور التاريخ في المحافظة على الإرث الحضاري؟

1/ التاريخ والحضارة الماهية والمفهوم :

لقد دأب الإنسان عبر تاريخه الطويل عن تساؤلات عدة تتضمن جملة الوقائع التي تحدث للإنسان في حياته اليومية، وفي مقدمتها قضايا التاريخ، وقد كانت استفسارات غير منتهية حول التاريخ ومضمونه وأسباب الاهتمام بدراسته، وإمكانية التعرف على ماضي الإنسان أو التوصل إلى الحقيقة المطلقة، ومدى معرفة مهمة المؤرخ بشكل محدد، وإمكانية تحديد علمية التاريخ مقارنة بالعلوم الأخرى. فالتاريخ في معناه اللغوي يعني الزمن وبيان الوقت، حيث قيل ورَّخ الكتاب أي بيّن وقت كتابته. أما المعنى العام لكلمة تاريخ حسب معظم المؤرخين هو ماضي الإنسان، غير أن البعض الآخر يرى أن لفظة تاريخ تعني جملة الأحداث التي وقعت في الماضي وتقع في الحاضر وممكنة الوقوع في المستقبل. فالتاريخ إذن هو سجل مسيرة البشرية ومصدر كل معرفة إنسانية حول التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي مرت بها الإنسانية عبر تاريخها الطويل. لذا فيمكن القول أن ماضي الإنسان هو سبيل معرفة وقائع الحاضر والمستقبل، التي تحدث للإنسان من خلال الاستفادة من جذور خبرات السابقين ، مع التطلع إلى واقع أفضل و أوفر أمنا .[1]

1 - عادل حسن غنيم و جمال محمود حجر : **في منهج البحث التاريخي** ، دار المعرفة الجامعية ، ط2 ، 1993 ، ص 21.

أ ـ التاريخ : التاريخ في اللغة تعريف الوقت، وتاريخ الشيء وقته وغايته، والتاريخ علم يبحث في الوقائع والحوادث الماضية، وحقيقته كما قال **ابن خلدون** : « أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال »[2].

ب ـ التاريخية : **Historisme** وهي القول أن الأمور الحاضرة ناشئة عن التطور التاريخي، كما يطلق هذا القول على المذهب القائل أن اللغة والحق والأخلاق ناشئة عن إبداع جماعي، لاشعوري ولا إرادي، وأن هذه الأمور قد بلغت الآن نهايتها وأنك لا تستطيع أن تبدل نتائجها بالقصد، ولا تفهمها على حقيقتها إلا بدراسة تاريخها .[3]

ج ـ فلسفة التاريخ : **Philosophie de L'histoire** هي التي تبحث في العوامل الأساسية المؤثرة في سير الوقائع التاريخية ، وتدرس القوانين العامة المسيطرة على نمو الجماعات الإنسانية وتطورها على مر العصور .[4]

كما أن فلسفة التاريخ هي البحث في المبادئ العامة التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية وهي تعني بتفسير مجرى التاريخ في ضوء نظرية عامة ـ على أنه كل غير مقسم إلى أحداث، وتضع لعلم التاريخ أساسا فلسفيا بتمحيص المنهج الذي يصطنعه المؤرخون وبمناقشة وتحليل المصادر ودراسة مصطلحات المؤرخين. إذ يعتبر القديس أوغسطين أول من فلسف التاريخ، إذ طبعه بطابع ديني، يظهر ذلك جليا في كتابه مدينة الله . لكن تعود فلسفة التاريخ إلى فيكو. غير أن تاريخ العلم يثبت لنا أن ابن خلدون سبقه إلى ذلك، وعني بها في مقدمته عناية خاصة قبل ظهور مساهمات **فيكو** و**هردر** و **هيجل** ومن جاء بعدهم .[5]

---

2 ـ عبد الرحمان ابن خلدون : **المقدمة** ، دار الهدى ، الجزائر ، ص 66 .

3 ـ جميل صليبا : **المعجم الفلسفي** ، ج1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 ، ص 229.

4 ـ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

5 ـ مجمع اللغة العربية : **المعجم الفلسفي** ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، 1983 ، ص 139 .

يعتبر عبد الرحمان ابن خلدون أول من استخدم لفظ فلسفة التاريخ، عندما ميّز بين ماهو ظاهر وماهو باطن في التاريخ، في قوله:« في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق».[6] من هنا يظهر لنا أن فلسفة التاريخ تتجاوز السرد والحشد والإخبار دون ربط بينهما، فهي بذلك تهدف إلى التعليل، من أجل الربط بين الوقائع والتكامل بين الأجزاء، ليتشكل التاريخ العالمي، الذي هو مادة الفيلسوف.

يعد الفيلسوف الفرنسي **فولتير Voltaire** (1818 – 1866) أول من قام بصياغة مصطلح فلسفة التاريخ، حيث يعني عنده هذا المصطلح، دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف.[7] ملوحا في ذلك برفضه لدراسة التاريخ أكواما متراكمة، عن المعارك الحربية والمعاهدات السياسية، دون عناية بمفهوم أو حكمة بادية، ممهدا الطريق أمام ما يسمى بالتاريخ النقدي، الذي تنحصر مهمته في تنقية الفكر الإنساني من العبودية والخرافة، للانتقال من منطق دراسة الحدث، إلى منطق دراسة فلسفة الحدث.

إن السبب الأساسي لنشأة فلسفة التاريخ، كما بينه روادها الأوائل هو قصور الطريقة التاريخية عن اكتشاف مسار التاريخ وغايته، فجاءت فلسفة التاريخ لتقدم العون والمساعدة للمؤرخين، من أجل بلوغ هذا الهدف .[8] ومن خلال ذلك يمكن أن ننظر إلى فلسفة التاريخ من منظورين أساسيين هما:

ـ جعل فلسفة التاريخ دراسة لمناهج البحث، أي الطرق التي يمكن أن يكتب بها التاريخ، وهذا يعني فحص منهج المؤرخ.

---

6 ـ ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، م1، مؤسسة الكتب الثقافية، ط2، لبنان، 1996، ص ص 7-8.

7 ـ رأفت الشيخ : **تفسير مسار التاريخ**، دار روتانبرنت للطباعة، مصر، 2000، ص 22.

8 ـ هاشم يحي الملاح: **المفضل في فلسفة التاريخ دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية**، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2007، ص 4.

ـ يسمى النشاط التركيبي، وفيه يقدم الفيلسوف وجهة نظر عن مسار التاريخ ككل، أي تاريخ الإنسان وتطوره الحضاري، بغض النظر عما في هذا التاريخ.[9]

ومن خلال هذا كله يمكن أن نعرف فلسفة التاريخ على أنها: « العلم الذي يبحث في الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، فيسعى لاكتشاف العوامل الأساسية، التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية، ويعمل على استنباط القوانين العامة، التي تتطور بموجبها الأمم والدول، على مر القرون والأجيال، فهو يهتم باكتشاف السنن والقوانين، التي تحكم تحولات ومتبدلات الأمم والشعوب عبر الماضي والحاضر والمستقبل ».[10] كما يمكن تعريفها أيضا:«هي البحث في المبادئ العامة التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية، وهي تعنى بتفسير مجرى التاريخ، في ضوء نظرية عامة على انه كل غير منقسم إلى أحداث، وتضع لعلم التاريخ أساسا فلسفيا بتمحيص المنهج الذي يصطنعه المؤرخون، وبمناقشة وتحليل المصادر ودراسة مصطلحات المؤرخين ».[11]

لقد أخذت فلسفة التاريخ نمطا معينا من البحث، كما ظهرت في كتابات **هردر Herder** (1744- 1803) و**هيجل Hegel** (1770 - 1831) وغيرهم من رواد فلسفة التاريخ حيث كانت فلسفة تأملية ميتافزيقية إلى حد كبير، لتثبت أن للتاريخ وحدة كلية على الرغم من التفكيك والانحرافات الظاهرة، وإذا كان بإمكاننا فهم الكلي، نستطيع فهم العناصر الجزئية للظاهرة، ومعرفة سير الوقائع، بطريقة عقلانية.[12]

---

9 - رأفت الشيخ : **تفسير مسار التاريخ**، المرجع السابق، ص 23.

10 ـ عامر الكافيشي: **حركة التاريخ في القرآن الكريم**، دار الهادي، ط1، لبنان، 2003، ص87.

11 - جميل صليبا : **المعجم الفلسفي** ، ج2 ، دار الكتاب اللبناني – مكتبة المدرسة ، بيروت ، 1982 ، ص 139.

12 ـ هاشم يحي الملاح: **المفضل في فلسفة التاريخ دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية**، مرجع سابق، ص6.